

يحل ، صمت سيمتد إلى آلاف وملايين السنين المقبلة ، آخر علامات الحياة تختنق ، الحركة الهائلة التي حفل بها الكون طوال وجود الانسان قد انقرضت ، وسيعود السكون الأبدي ولا يبقى إلا الشمس والقمر ، والليل والنهار والريح والرمال . الاجساد متراسة موزعة مختلطة لا تكاد تستطيع تمييز ساق الرجل من ساق المرأة ، تبدو في أحيان كثيرة خالية من الشعر ، والجميع كأنهم ييحثون عن ابرة سقطت في قلب الرمل ليسوا منحنين فقط ولكنهم ممدبون تماماً وقد استندوا بأذرعهم إلى الأرض ، وانكفأوا على الرمال عيونهم تكاد تخرج من محاجرها بحثاً عن شيء لا بد أنه مخبأ بطريقة ما في الرمل .

الأطراف كثيرة ، كل حركة منها تثير ثائرة الرمل يملأ العيون ويسد الأنوف ، وتتصاعد صرخات الاحتجاج لأن شخصاً وقف أو سار وتحرك ، وأثار بحركته زبعة صغيرة في ساكن الرمال ، المعجزة . معجزة العصر . الشيء الصغير الكائن والموجود في حياتنا منذ وجودها الأول إنما لكونه صغيراً فالجميع يعبرون به دون أن يحسوا له بأي انفعال أو احتفال ، أقدامهم تدميه أو تصطدم به دون أن تشعر أو تحس أنها صدمت شيئاً أو تعثرت بشيء ، والشيء دائم الصراخ والوعيل ، انه كائن وموجود ، دائم الرجاء أن يحظى منها بالتفاتة ، ان يتلقى اشارة واحدة من طفل أبله تفيد أنه رآه أو سمعه أو أحس به بلا فائدة . الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى وأكبر من أن يدعهم ولو للحظة يفيقون الى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال . اننا لم نعد أحراراً في رؤيانا ، أصبحت أنظارنا قصيرة موجهة الى ما نعرفه أو الى ما نود معرفته ، أي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا الا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا وأحلامنا ، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو ، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له أو عليه ، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله ، اليوم نحن لا نرى خارجنا إلا ما نحقق به ما نحس داخلنا ، لا نرى إلا لكي نثبت أو نبرهن به أننا على صواب ، ولكن في العادة دائماً ما يحدث شيء ، حدث يعرض مصادفة ، شيء لا بد رغم ارادتنا يرغمنا على أن نلوي أعناقنا وننظر فنفاجاً أننا أمام حدث خارق للعادة ، اننا أمام شيء وان يكن صغيراً إلا انه بالغ الدلالة ، وحينئذ تفلت من أحدنا صرخة الإدراك الأولى ومعها تجر الانتباهات الى انتباهات ليصبح ذلك الشيء بعد يوم وليلة محور اهتمامنا الأول ونكتشف وندرك كم نحن بحاجة اليه ، وكم كانت تفتقده حياتنا وكم هو لازم حيوي لها وندفع حينئذ اندفاع من فقدوا العقول نهتم به ، اهتماماً مبالغاً فيه ، ويصبح أمل الانسان منا أن يحظى منه بنظرة ، أو نراه رأي العين . هل أصبتم بخيبة أمل؟ أنا نفسي .. حدث لي ما حدث لكم ولدى الإدراكة الأولى كدت أهيم على وجهي يائساً خائب الأمل . لنحاول اذن أن لا نخطيء خطأنا الشهير الأول، الشيء خارج نواتنا ، الشيء لا كما نريده وإنما كما هو موجود وقائم وكما كان يمضي الناس عنه غير مهتمين أو مدركين . انه ليس حشرة غريبة أو قطعة معدن نادر، كان في الحقيقة بشراً مثلي ومثلك له اذنان وعينان وأنف وفم وأسنان ولد بهما جميعاً والمفروض أنه لا يزال الى لحظتنا هذه يمتلكها . أنا لا